المحاضرة الخامسة

الآمدي والموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري:

الآمدي هو أبو القاسم الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧٠ ه صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري. وقد ألّف الآمدي كتابه هذا بعد أن وجد كلاما كثيرا يدور بين الناس حول أيهما أفضل البحتري أم أبو تمام؟ فكان كتاب الموازنة نقلة نوعية في تاريخ النقد الادبي، ذلك لأنه ارتفع عن سذاجة النقد النقد القائم على المفاضلة من دون تعليل واضح، فجاءت موازنته معللة ومؤيدة بالتفصيلات التي تلم بالمعاني والالفاظ والموضوعات الشعرية بفروعها المختلفة. وقد أراد الآمدي أن يبين للناس أن الاختلاف في تفضيل أحدهما على الآخر أمر طبيعي لكثرة جيدهما وبدائعهما. وأن اختلاف الناس في أشعارهما يعود الى اختلاف أذواق الناس ومذاهبهم الأدبية. فمَن فضل البحتري ونسبه الى حلاوة النفس وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعاني، هم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعين وأهل البلاغة، ومَن فضل ابا تمام ونسبه الى غموض المعاني ودقتها وكثرة مايورده مما يحتاج الى استنباط وشرح، هؤلاء هم أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة والذين يميلون الى التدقيق وفلسفي الكلام.

ونقل الآمدي رواية عن البحتري يبين فيها منهجه الفني المختلف عن منهج أبي تمام، فيقول عن ابي تمام(أغوص على المعاني مني ،وأنا أقوم بعمود الشعر منه). وهذا يعني أن أشعار القدماء هي المعيار الذي يُقاس عليه شعر المحدثين أمثال البحتري وأبي تمام، وأشعار القدماء هي التي ينطبق عليها عمود الشعر. وعلى وفق ذلك يمثل البحتري عمود الشعر أبا تمام يمثل الخروج عن عمود الشعر.

هل كانت فكرة الموازنة وليدة ذهن الآمدي؟

الجواب، كلا! ليست الفكرة من بنات أفكار الآمدي؛ لأنه وإن ألزم نفسه بمنهج ثابت وواضح ينم عن فكرة ثابتة وراسخة كان

يعـــدّل فـــي منهجـــه فـــي التطبيـــق كلمـــا تقـــدم بـــه البحـــث وواجهتـــه الصـــعوبات. وأن هـــذا التعـــديل المســـتمر فـــي خطتـــه ومنهجـــه فـــي الموازنـــة يـــدل دلـــيلا قاطعـــا علـــى تـــأثره نظريـــا بفكـــرة ســـابقة لـــه لـــم يشـــأ أن يـــذكرها، ولـــو كانـــت الفكـــرة وليـــدة ذهنـــه لرأينـــا إقدامـــه عليهـــا أكثـــر وضوحا وأقل تعديلا.

ولـــو عـــدنا الـــى الـــوراء لتـــذكرنا حكومـــة الإمـــام علـــي عليـــه الســـلام المشـــهورة فـــي تـــاريخ النقـــد الأدبـــي. ويبـــدو أن الآمـــدي اطلـــع عليهمـــا فأوحـــت لـــه بفكـــرة الموازنـــة بـــين شـــاعرين جمعهمـــا زمـــان واحـــد وغايـــة واحـــدة. ويبـــدو أيضـــا أن الموازنـــة التـــي اختارهـــا الآمـــدي وألـــف كتابـــه فيهـــا جامعـــة لأنـــواع الموازنـــات المتنـــاثرة التـــي عرفهـــا النقـــد فـــي مجـــالس الأدبـــاء ومحـــاولات الشـــعراء ابتـــداء مـــن حكومـــة أم جنـــدب ومـــرورا بمفاضـــلات النابغـــة الـــذبياني وصـــولا الـــى تفضـــيل عمـــر لزهيـــر بـــن أبـــي ســـلمى وحكومـــة الإمـــام علـــي عليـــه الســـلام التـــي أسســـت للموازنـــة العلميـــة بوضـــع قواعـــدها وأصـــولها. فجمـــع الآمـــدي التـــي كانـــت بســـيطة وعـــابرة ليكـــوّن منهـــا منهجـــا يطبقـــه علـــى شـــعر شـــاعرين معاصـــرين همـــا أبـــو تمـــام والبحتـــري، اللـــذان جمعهمـــا نســـب واحـــد وزمـــان واحـــد وغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وشهرتهما في المدح والرثاء.

منهج الآمدي في الموازنة:

وجـــد الآمـــدي مـــن يجعـــل الشـــاعرين فـــي طبقـــة واحـــدة وانهمـــا متســـاويان، كمـــا وجـــد مـــن اعتبرهمـــا مختلفـــين مـــن حيـــث الالتـــزام بعمـــود الشـــعر، وكـــان يســـتهدف الآمـــدي إلـــى الموازنـــة بـــين الشـــاعرين دون أن يـــذم أحـــدهما، كمـــا أعلـــن اخـــتلاف مـــذاهب النـــاس فـــي الشـــعر ذاكـــراً بأنـــه لايريـــد أن يفصـــح بتفضـــيل أحـــد الشـــاعرين علـــى الآخـــر، ولكنـــه أراد أن يـــوازن بـــين قصـــيدتين مـــن شـــعرهما إن اتفقتـــا فـــي الـــوزن والقافيـــة وإعـــراب القافيـــة، وبـــين معنـــى ومعنـــى ليقـــول: "أيهمـــا أشـــعر فـــي تلـــك القصـــيدة، وفـــي ذلـــك المعنـــى ثـــم أحكـــم أنـــت حينئـــذ علـــى جملـــة مـــا لكـــل واحـــد منهمـــا إذا أحطـــت علمـــاً بالجيـــد والـــرديء".

ومن خلال القراءة النقدية للمقدمة وجدنا أنه يضع القاريء في خطين متعاكسين:

أ - "ممن يفضّل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق، فالبحتري اشعر عندك ضرورة

ب - "وان كنت تميل إلى الصنعة، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة، فأبو تمام عندك اشعر لامحالة".

فهو قد لخص لنا هذين الخطين الشعريين بهذا الشكل من التنظير مفروضاً ومطلوباً للوصول إلى البرهان النهائي والنتيجة الحاسمة عن طريق الاختيار الشخصي للأسلوبية الفنية المعتمدة من قبل المتلقّي نفسه.

ولهذا قسم الآمدي كتابه على النحو الآتي:

١- المحاجّة بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري: فقال الآمدي:"وأنا أبتدئ بذكر ما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى، عند تخاصمهم في تفضيل أحدهما على الآخر، وما ينعاه بعض على بعض". قال صاحب أبي تمام: كيف يجوز لقائل أن يقول أن البحتري اشعر من أبي تمام وعن أبي تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى؟ وباراه.. واعترف البحتري بأن جيد أبي تمام خير من جيده، على كثرة جيد أبي تمام، فهو بهذه الخصال أن يكون أشعر من البحتري أولى من أن يكون البحتري أشعر منه. وقال صاحب البحتري: أما الصحبة فما صحبه ولا تلمذ له، ولا روى ذلك احد عنه، ولا نقله.. ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري.

وقد سار الآمدي على هذه الطريقة ذاكراً الآراء مفصّلة لكل رأي وذاكرا الروايات المتعلقة بذلك.

٢- مساويء الشاعرين: فقال: "وأنا ابتدئ بذكر مساويء هذين الشاعرين، لأختم بذكر محاسنهما، وأذكر طرفا من سرقات ابي تمام.. ومساويء البحتري... ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين... إن شاء الله تعالى. فذكر سرقات ابي تمام وأخطائه في المعاني والألفاظ، والاستعارات البعيدة،

والتجنيس القبيح، والطباق الرديء ووحشي الألفاظ واضطراب الأوزان. فمن خطأ أبي تمام في المعاني قوله:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد

ونقل قولا لأحد العلماء ينكر فيه هذه الاستعارة: (هذا الذي أضحك الناس منذ سمعوه الى هذا الوقت) . ويرى الآمدي أن خطأ أبي تمام بيّن من خلال مقارنته بأشعار الأقدمين الذين رآهم يصفون الحلم بالعِظم والرجحان والثقل والرزانة كقول النابغة:

وأعظم أحلاما وأكثر سيّدا وأفضل مشفوعا إليه وشافعا

وكقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

ويقول الآمدي إذا ما ذموا الحلم وصفوه بالخفة فيقولون خفيف الحلم ويأتي بأمثلة من الشعر القديم ليستدل على أن وصف الحلم بالرقة ذما وهجاء. ثم يذكر بيتا للبحتري يصف فيه الحلم ويراه جيدا لأنه تابع فيه وصف القدماء:

فلو وزنت أركان رضوى ويذبل وقِيس بها في الحلم خفّ ثقيلها

ثم يضيف قائلا إن أبا تمام لا يجهل وصف الحلم بالثقل والرزانة ويعلم أن الشعراء غليه يقصدون ولكنه يريد أن يبتدع فيقع في لخطأ.

ويذكر الآمدي أمثلة على قبيح استعارات أبي تمام، منها قوله:

فضربتَ الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

فشبه أبو تمام الشتاء بالبعير الهائج الذي لا يسمح أن يُركب، فيقول أن كرم الممدوح هكذا صنع بالشتاء.